

لفصل الأول

النظرة الحديثة لتحديد المستوى اللغوى

أسس النظرة الحديثة

- ١ - مراعاة المستوى الاجتماعى لاستعمال اللغة
- ٢ - مطابقة العرف اللغوى لنظام صحة اللغة
- ٣ - الافتصار فى اللغة على زمن خاص وبيئة خاصة
- ٤ - اعتبار التطور فى اللغة
- ٥ - المستوى اللغوى نشاط للتكلم بصفه الباحث

أَسْسُ النُّظَرِيَّةِ الْحَدِيثَةِ لِمَسْتَوَى اللُّغَوِيِّ

يلبغى معرفة أن الأسس التي ستشرح في هذه الفقرة ليست أفكاراً مستقلة يمكن أن ينظر لكل واحد منها على انفراد ، بل هي أسس متكاملة متعاونة ، يتحقق للمتكلم بالتوافق معها صحة نطقه ، كما أن مخالفتها جميعاً كخالفته أحدها على انفراد ، كلاهما يؤدي إلى خروج الكلام عن مستوى الصحة ، ويؤدي إلى وصفه « بالخطأ » .

والمستوى الصوابي في عبارة واحدة هو (مراعاة العرف اللغوي المقتصر

على بيئة خاصة في زمن خاص مع اعتبار التطور في اللغة - يتوافق معه

نشاط المتكلم ويلاحظه الباحث بهذه الصفات

هذا هو المستوى الصوابي بإجمال ، وحول هذه العبارة جاء حديث اللغويين المحدثين عنه ، سواء في ذلك الحديث المباشر عن هذه العبارة وحدة واحدة ، مما يطلق عليه أحياناً اسم « المستوى الصوابي » ، Standard of Correctness ، كما صنع « أوتوجسبرسن » ، في كتابه « اللغة بين الفرد والمجتمع » ، و « جاردنر » ، في كتابه « الكلام واللغة » ، والدكتور تمام حسان في كتابه « اللغة بين المعيارية والوصفية » ، ومن ذلك حديثهم عنه بطريقة مباشرة أيضاً فيما يتعاق بالافكار السابقة منجمة ، من حيث اعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية يصدق عليها ما يصدق على غيرها من أنواع السلوك الاجتماعي الأخرى ، ومن حيث مراعاة العرف اللغوي في قبول الكلام أو رفضه دون تحكم أو اقتراض ، واقتصار هذا العرف على زمن خاص وبيئة خاصة ، لأنه إذا لم يحدد الزمن والبيئة ، تعرض للنطق والدراسة كلاهما للخلط وعدم الدقة ، إذ لا يصح أن يتحكم عرف لغوي لبيئة خاصة في بيئة

أخرى ، كذلك لا يصح أن يفرض مستوى لغوى مأخوذ من فترة زمنية معينة لإحدى اللغات على فترة أخرى ، وإلا أدى الأمر للتحكم والاضطراب ، ويؤخذ في الاعتبار كذلك ما قرره المحدثون من تطور اللغة باستمرار ، لأن الحكم على اللغة بالتوقف فكرة غير سليمة وغير عملية ، لا تتفق مع تطور اللغة الذى لا قدرة لأحد على إبقائه والوقوف في طريقه .

والمستوى الصوابى يتعلق بنشاط المتكلم ، إذ هو معيار يراعيه في كلامه — عن غير قصد في الغالب — ويتنبه أو يتنبه له قصدا إذا حدثت مخالفة له ، أو إذا كان في موقف التعلم للغة ، حيث يلحق من قواعد النحو وجداول النصرف ما يجب عليه مراعاته في استعماله اللغة المتعلمة .

أما دور الباحث فهو دور من يقوم بوصف نشاط يؤديه الناطقون وكيفية هذا الأداء وأساسه ، وليس دوره وضع قواعد جامدة يصب فيها نشاط المتكلمين باللغة ، فما وافقها فهو صواب وما خالفها فهو خطأ ، فهذا الموقف — علاوة على أنه تحكى وغير علمى — تجاوز لعمل الباحث وهو الوصف إلى اتخاذ موقف الناطق وهو المعيار ، وإن كان هناك فرق بين معيار الباحث ومعيار مستعمل اللغة ، الأول تحكى ذو سلطة والثانى تلقائى ولا سلطة فيه .

يقول جاردنر :

يجب أن يتسع مجال الرؤية إلى حد يسمح بإعطاء فكرة موجزة عن الكلام الخطأى ، والإشارة إلى هذا الموضوع تعنى وجود مستوى لغوى ربما أغفله المتكلم أو عجز عن الوصول إليه ، ومن أجل هذا يجب أن نسأل أنفسنا أولا ، ما هى اللغة ؟ ومن صاحب السلطة في وضع القواعد والأسس والاستعمالات والكلمات التى يجب التزامها وتفرض على الجميع ١١ وهذه

أُسئلة سهلة ، ولكن الإجابة عليها عسيرة ١٩ فهناك تقدير تقريبي للموضوع من رأيه أنه كما يقف الفرد وراء كلامه ليدافع عنه ، فإن المجتمع اللغوي يقف أيضا وراء اللغة عموما .

ونحن إذا أنعمنا النظر أكثر ازدادت صعوبة الموضوع ، فهناك اللهجات المحلية والطبقات الاجتماعية وكل من النوعين له نظامه وعاداته اللغوية الخاصة ، وحتى وقتنا الحاضر يسود اعتقاد في إمكان وضع مستوى حاسم يعتبر عاما وغير قابل للنقض (يقصد القواعد) ، وكان السائد في الجيل الماضي — بالنسبة للمؤلف — اتجاه اللغويين إلى النظرة للغة نظرة معيارية صرفا ، فقد كان النحو في نظرهم مهمته تدريس قواعد صحة الكلام ووظيفة المعجم ليس إعطاء معاني الكلمات فقط ، بل الإشارة أيضا إلى ما يجب أن تعنيه الكلمات ، ولكن الاتجاه الآن يسير في اتجاه آخر مناقض تماما لذلك الاتجاه المعيارى ، إذ أصبحت المؤلفات اللغوية — في جزئها الأعظم — تصف الاستعمال اللغوي في صورتيه الماضية والحاضرة .

ويضيف بعد ذلك قوله : لا يعد النحو ولا المعجم إوافيا بالمراد منه إلا إذا اعترف وسجل الدرجات التي تقع بين الكلام المتفق على صوابه والكلام المتفق على خطئه ، وأنه يجب أن تمزج النظرة المعيارية بالدراسة الوصفية الصرفة واضعين في الاعتبار أن اللغة في أى لحظة من لحظاتها ليست فقط ما هو كائن بالفعل ، وإنما ما سيكون في المستقبل أيضا ، فاللغة في حركة دائمة وفي تطور دائم (١) .

ففي النص السابق يتساءل « جاردنر » عن تحديد السلطة التي تقرر

القواعد والأسس والاستعمالات والكلمات ، ويجب بأنها المجتمع اللغوى الذى يقف وراء اللغة عموما .

وبهذا الحرص نفسه يقرر وجوب مراعاة اختلاف البيئة فى اللهجات المحلية والطبقات الاجتماعية فلكل من النوعين نظامه وعاداته اللغوية الخاصة .

ويرفض « جاردنر » وضع مستوى حاسم من القواعد المعيارية يعتبر عاما وغير قابل للنقض وإن كان هذا أمرا سائدا قبل عصره وفى عصره ، فالبحث فى اللغة الآن يتناقض مع المنهج المعيارى ، إذ يقصر مهمته على وصف ما يدخل فى الإمكان من صور الاستعمال فى الماضى والحاضر فقط ، دون فرض نتائج على المستقبل .

وهو أخيراً يقرر اعتبار « تطور اللغة » ، « لأن اللغة فى أى لحظة من لحظاتها ليست فقط ما هو كائن بالفعل ، وإنما ما سيكون فى المستقبل ، فاللغة فى حركة دائمة وفى تطور دائم » ،

تلك هى النظرة الحديثة وأسسها إجمالاً ، وفيما يلى بيان لسلك أساس منها على حدة واضعين فى الاعتبار — كما ذكرنا — أن كلا من هذه الأسس ليس له استقلال منفرد ، وأنه يودى دوره باعتبارها عنصراً من جهاز متكامل .

١ — مراعاة المستوى الاجتماعى لاستعمال اللغة

فى كل مجتمع من المجتمعات — مهما كان صغيراً — توجد مجموعة من المظاهر الاجتماعية التى تسود بين أعضائه ، حيث ينظر إليها على أنها مجموعة من الأصول السلوكية التى ينبغى مراعاتها كما ارتضاها المجتمع ، وذلك كالعادات والتقاليد والملابس والأسواق وطريقة المعيشة واللغة ، وهذه المظاهر

العرفية ليست من صنع أحد من أفراد الجماعة ، وإنما هي ميراث من العادات العرفية التي تسكونت على مر السنين ، وارتضى أفراد المجتمع عامة الخضوع لها ومراعاتها ، ولكي يعيش الفرد متوافقاً مع مجتمعه يجب أن ينسجم سلوكه مع المظاهر الاجتماعية العرفية ، وإلا تعرض لعقوبات تتدرج من السخرية منه ، إلى الامتناع عن مزاملته وصحبته ومعاملته ، إلى العقوبات القانونية الرادعة — كما هو الحال في حالة الجريمة — وكل هذه أنواع من الضغوط الاجتماعية العنيفة التي يتعرض لها الفرد إذا خرج على السلوك العرفي المقرر للجماعة ، ولنفترض أن إنساناً ما خلع كل ملابسه ، وسار في أحد شوارع القاهرة عارياً كما ولدته أمه ، أو أن إنساناً آخر ارتدى زياً غريباً على الناس ، فخرج عليهم « بطربوش » طويل تعلوه قبعة ، وتحتة جلباب بلدى قصير إلى ما فوق الركبة ، وشراب ملون بدون حذاء ، ولنا حينئذ أن نتصور مدى الدهشة والسخرية التي يقابل بها الناس كلا منهما ، وما يصب عليه من لعنات ، بل ربما أقدم أحد المارة في الشارع على الإمساك به وتقديسه إلى أقرب مركز للشرطة أو إرساله إلى مصحح للأمراض العقلية .

ومثل الملابس غيرها من أنواع السلوك الأخرى ، فنحن مثلاً أمة مسلمة إذا أظلم شهر رمضان ، فرض العرف الدينى على الناس الامتناع عن الطعام والشراب وكل أنواع المفطرات ، فلنفترض أن شخصاً ما وقف في نهار رمضان في أحد المساجد وهو يلثم الطعام ويحب الماء عيانياً بيانياً ، فإذا يكون مصيره ١٢ أغلب الظن أن شعور الاستياء العام سوف يعم كل من يتصادف وجوده في المسجد حينئذ من هذا السلوك الشاذ ، وسيقدم الكثيرون منهم على سبه وردعه وطرده من المسجد ، وربما نالته من أحدم عقوبة بدنية قاسية .

يقول « ساپير Sapir » : إننا باعتبارنا كائنات بشرية لا يمكن أن توجد خارج المجتمع ، حتى إنه لو وضع شخص ما في زنزانة منفردا ، فإنه مع ذلك لا يزال موجودا في المجتمع ، لأنه يحمل أفسكاره معه ، وهذه الأفسكار مهما كانت خاصة به ، فإنها تكوّن بمساعدة الجماعة ، فنحن لا نحصل على خبرة مالها طابعها الاجتماعي بصفتنا الفردية ، مهما بلغت درجة اهتمامنا بها^(١) .

ويقول « جيسبرسن O. Jespersen » : إن وجود قواعد تحكم السلوك الاجتماعي الإنساني من الأمور المسلم بها ، وتبعاً للظروف الاجتماعية المختلفة يختلف سلوكنا الاجتماعي والقاعدة السلوكية هي الحكم بقبول سلوك معين أو رفضه تبعاً لما يقضى به العرف الجماعي^(٢) .

فالإنسان - كما يرى ساپير - لا يمكنه أن يعيش خارج مجتمع ما ، وهو بذلك يستمد خبراته الاجتماعية من هذا المجتمع الذي يعيش فيه ، ومن ذلك بالطبع كل أنواع السلوك التي تعارف عليها المجتمع ، وهو في الوقت نفسه يقوم بحراستها وإلزام الأفراد بها ، وذلك - كما يقول جيسبرسن - بوجود قواعد سلوكية تصبح بفعل العادة من البدهيات التي لا تناقش ، والقواعد السلوكية ما هي في الحقيقة إلا التعبير غير المحسوس عن عرف الجماعة فيما تقبله أو ترفضه .

واللغة من بين المظاهر الاجتماعية المختلفة عامل أساسي من عوامل الاتصال بين الناس ، والوصف « أساسي » وصف مقصود هنا ، لأن عوامل الاتصال بين الناس - كما يقول ساپير - تنقسم إلى عوامل ثانوية ،

(١) Selected Writings of Edward Sapir, P. 539.

(٢) انظر : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٢٣ .

وهى التى تظهر فى فترات خاصة، وذلك عند بلوغ شعب ما مستوى حضارياً معيناً ، بينما العوامل الأساسية تعتبر عامة وضرورية لكل الناس ، ومن أهمها اللغة والإشارة فى أوسع معانيها وتقليد السلوك والإيماءات الاجتماعية واللغة هى أحسن هذه الوسائل من حيث الوضوح والتحديد .

فلا يمكن أن يتصور مجتمع بدون لغة ، واللغة - من ناحية أخرى - تدين بوجودها للمجتمع ، إذ أن حاجة الناس إلى الاتصال والتفاهم قد دفعتهم دفعاً لإيجاد الوسيلة التى تحقق لهم وجودهم الاجتماعى ، فمكانت للغة هى أرقى هذه الوسائل .

وقد دار بين العلماء حوار طويل حول اعتبار اللغة أداة تعبير عن الفكر أو وسيلة للاختلاط الاجتماعى .

والحق أنه لا يمكن أن تجرد اللغة للتعبير عن الفكر وحده ، كما أنه لا يمكن أن تعتبر وسيلة سلوكية فقط كأي فعل من الأفعال ، فالانحياز الحاسم إلى هذا أو ذاك لا يتفق مع استعمال اللغة فى الواقع ، فليست حياة الناطقين باللغة - أية لغة - تفكيراً مستمراً مضنياً تعبر عنه الألفاظ والعبارات فى قوالب منطقية محددة بأسوار الفكر باستمرار ، وليست حياة الناطقين أيضاً خالية تماماً من الأمور الذهنية العميقة ، ومقتصرة على الاتصال الاجتماعى المباشر ، حيث تستعمل فيه اللغة لتحقيق الرغبات أو نفاها للآخرين أو سؤالهم عنها أو إغرائهم بفعالها واستمالتهم لذلك أو النسالية والمنفعة .

فالحق أن اللغة تدبر عن هذا وذاك ، وإن كان التعبير عن الفكر يبدو أمراً ثانوياً بالنسبة للوظيفة الأساسية للغة ، لأن استخدام اللغة فى الأمور (٢ م - المبنى القوي)

الذهنية جانب واحد فقط من جوانب استخدام هذه الأداة الرائعة في شئون الإنسان الاجتماعية المتنوعة .

فاللغة تستخدم في الفكر والمسائل الذهنية أحياناً ، وتستخدم في تحقيق الصلة الاجتماعية بين الناس في معظم الأحيان ، ومع ذلك فإن استخدامها في المسائل الذهنية مظهر أيضاً من مظاهر الصلة الاجتماعية على مستوى الفكر ، لأن صلة الناس لا تتحقق بالأمور العادية فقط ، بل تتحقق كذلك على مستوى أرقى هو مستوى الأفكار الذهنية المجردة .

وبناء على ذلك فإنه لا يصح عزل الجانب الذهني وحده ثم الانحياز له مقابل استخدام اللغة على أنها مسلك اجتماعي لتحقيق الصلة بين الناس ، فإنها في هذا الجانب الفكري لم تخرج عن كونها مسلكاً اجتماعياً لتحقيق الصلة الفكرية بين الناس .

هذا المظهر الاجتماعي الهام - استعمال اللغة - يصدق عليه ما يصدق على المظاهر الاجتماعية الأخرى ، من خضوعه للعرف الاجتماعي العام الذي يفرض عليه قواعد السلوك الخاصة به ، كما يفرضها على غيره من أنواع السلوك المختلفة التي تسود المجتمع .

فمراعاة العرف الاجتماعي تشمل اللغة كما تشمل غيرها من أنواع السلوك الأخرى ، فالمسلك يستعمل لغة المجتمع الذي نشأ فيه ، ويتطابق معها تلقائياً دون تفكير في ذلك ، كشأنه في كل الأمور العرفية الأخرى من العادات والتقاليد والملابس وغيرها .

٢ - مطابقة العرف اللغوي لنظام صحة اللغة

ينبغي توضيح الأمور الآتية باختصار :

١ - المقصود من العرف اللغوى .

٢ - الصلة بين العرف الاجتماعى وعرف صحة اللغة .

٣ - السلطة اللغوية بين التوقيف والعرف .

المقصود بعرف اللغة : نظامها أصواتاً وصيغاً ومفردات وتراكيب حسب أصول استعمالية خاصة بالمستوى الاجتماعى الذى يتداولها فيه أفرادها إذ يجيدها هؤلاء الأفراد بالمشاركة والمران .

فالعربية الفصحى مثلاً لها نظامها الخاص بها فى المظاهر السابقة - أصواتاً وصيغاً ومفردات وتراكيب - والذى حدد لها هذا النظام وقرره هو عرف الاستعمال الذى جاء به تراثها الدينى والعلمى والأدبى ، ونطقها فى المواقف الجادة والعامة حيث لا يصلح فى كليهما غيرها ، وينطبق ذلك أيضاً على اللهجات المحمية واللغات الخاصة - على كثرتها - فليس كل منها أيضاً عرفها اللغوى فى هذه المظاهر نفسها .

والصلة بين العرف الاجتماعى - الذى سبق شرحه - والعرف اللغوى الذى نحن بصدد أن مراعاة المتكلم لـكلا الأمرين - الاجتماعى واللغوى - يحقق لـكلامه المستوى المطلوب للقبول ، أما إذا راعى العرف الاجتماعى دون اللغوى فإنه حينئذ يقع فى الخطأ والتخليط . وإذا حدث العكس من مراعاة العرف اللغوى وحده مع إغفال العرف الاجتماعى ، فإن كلامه يكون صحيحاً من الناحية اللغوية ، لكنه فى الوقت نفسه لا يحقق المستوى المطلوب لقبوله ، وحينئذ يتعرض كلامه لرد فعل اجتماعى عنيف قوامه السخرية به أو رفضه .

لنفترض أن مؤتمراً عربياً عاماً عقدته الجامعة العربية للتداول فى شأن من شئون التعليم أو الإعلام أو السياسة ، يحضره ممثلون من كل الأقطار

العربية ، ووقف فيه أحد الأعضاء وهو يتحدث الفصحى دون مراعاة كاملة لنظامها الصوتى أو الصرفى أو التأليف جملها وإعرابها أو خلط في حديثه أحيانا بين الفصحى والعامية ، فماذا تكون النتيجة ؟

الذى أتوقعه أن هذا المتحدث ربما أدى مهمته في الإفهام ، ولكنه في الوقت نفسه سترك في نفوس المؤتمرين مرادة وسخرية ، والسبب في ذلك أنه راعى العرف الاجتماعى فتحدث الفصحى ، لكنه أغفل العرف اللغوى للفصحى ، فانتقر كلامه إلى الصحة .

ولنفترض في هذا المؤتمر نفسه أن وقف أحد الأعضاء يتحدث لهجته المحلية - السودانية أو العراقية أو السورية - أو المصرية - فماذا تكون النتيجة ؟

أغلب الظن أن كثيراً من الحاضرين لن يستوعبوا حديثه كاملاً ، مع أنه قد راعى المستوى الصوابى لهجته الخاصة ، فكلامه صحيح من هذه الناحية ، لكنه في الوقت نفسه أغفل العرف الاجتماعى المتمثل في أعضاء المؤتمر القادمين من أقطار عربية مختلفة ، ويحتم عليه هذا المستوى الاجتماعى العام أن يخاطبهم بالفصحى ، ويترتب على إغفال ذلك أن يصبح فهم كلامه متعسراً ، وهذا أضعف الإيمان ، وأفواه أن يسخر منه أحد الأعضاء أو يقاطعه أو يرفض الاستماع إليه ، وقد يترتب على ذلك فشله في أداء مهمته التى جاء من أجلها .

وهذا المعنى السابق هو الذى يفسر لنا تلك النواذر الطريفة التى جاءت عن بعض النحاة قديماً كعيسى بن عمر (ت ١١٧) وأبى علقمة النحوى حيث كانوا يلتزمون مستوى خاساً في استعمال اللغة بفربون به على السامعين

من العوام ، وقد لحق كلا منهما - كما جاء في كتب طبقات النحاة - كثير من السخرية والأذى .

ولعل أوضح ما يعبر عن ذلك في وقتنا الحاضر تلك العبارة الساخرة التي يطلقها أحياناً أحد أولاد البلد ، من المصريين في وجه من يخاطبونه بالفصحى في شئون الحياة العادية (يتكلم بالنحوى - بفتح الحاء) وربما أتبع ذلك بحركات من يديه ووجهه ولسانه ، والسبب وراء ذلك كله هو إغفال العرف الاجتماعى ، وإن كان الكلام صحيحاً بحسب عرف اللغة فصحى أو لهجة .

ويقول مائيه : فى كل وسط اجتماعى متجانس السكان نجد عادة أن للغة شيئاً من الوحدة ، بل إنه لشرط أساسى لوجود اللغة أن يحرم من يتكلمونها على استخدام نفس الوسائل للتعبير ، وهذا ما يدركه أفراد كل جماعة محددة ، فالخروج عن جادة اللغة يثير من يسمعونها ، ويعرض الخارج إلى السخرية على الأقل^(١) .

ويقول جيسبرسن : كل شخص يحاول المحافظة على ما ثبت واجتهد أو تعرف عليه ، فإذا خرج عن ذلك فالنتيجة أن كلامه لا يؤدي فسكرته مطلقاً ، أو يؤدي ذلك إلى إساءة فهم ، لكن الغالب أن يفهم كلامه بصعوبة ، إذ يحس سامعوه بشذوذ فى اختيار الكلمات أو التعبيرات أو النطق^(٢) .

ويقول بلومفيلد : الجماعة التي تستعمل نظام الكلام بطريقة موحدة تكون جماعة لغوية واحدة ، ومن الواضح أن قيمة اللغة تعتمد على من

(١) منهج البحث فى الأدب واللغة ص ٨١ .

(٢) Language, its Nature, Development and Origin, P. 282

يستعملونها بنفس الطريقة ، وكل فرد في هذه الجماعة يدبغى أن يعبر عن كل مناسبة بالكلام المضبوط ، وكما يقوم بالاستجابة الصحيحة حين يسمع أحد أفراد هذه الجماعة ينطق نفس اللغة ، يجب إذن أن يتحدث بوضوح ، وأن يفهم أيضا ما يقوله الآخرون (١) .

ففي النصوص السابقة شرح المقصود بالعرف اللغوى بأنه نظام اللغة « على ما ثبت واستقر أو تعورف عليه » - كما يقول جسر سن - أو ما أسماه ما ييه « جادة لغوية محددة » ، وأن الذى يحمى هذا النظام اللغوى المتعارف عليه هو الجماعة اللغوية التى تستعمل الكلام على نظام معين وبطريقة موحدة ، وأن من يخرج عن جادة هذا النظام يؤدى به ذلك إلى إثارة السامعين عليه وسخريتهم منه .

هذا هو المقصود بالعرف اللغوى ، وقد حدده « بلومفيلد » بقوله : « يجب إذن أن يتحدث بوضوح وأن يفهم أيضا ما يقوله الآخرون ، وهذا الوضوح والفهم لن يتحققا مستعمل اللغة دون مراعاة عرفها كما تستخدمها الجماعة التى تستخدم المتكلم لغتها .

والخلاصة أن المستوى اللغوى يعتمد أساساً على عنصرين مهمين هما :
(١) المطابقة للعرف الاجتماعى .

(ب) الوضوح الذى يتحقق بمراعاة العرف فى نظام اللغة أصواتاً وصيغاً ومفردات وتراكيب .

أما عن « اللغة بين التوقيف والعرف » ، فإن المقصود « بالتوقيف » وجود سلطة خارجة عن اللغة من حقها التصويب أو التخطئة ، سواء أكانت

هذه السلطة هي القواعد النحوية أم جهة من جهات الاختصاص اللغوى حيث يتخذ أحدهما أو كلاهما حكما من حقه أن يأمر بالصواب وينهى عن الخطأ فى استعمال اللغة .

وفى مقابل ذلك يوجد « العرف اللغوى » الذى قوامه - كما تقدم - نظام اللغة المعينة على ما ثبت واستقر بين الجماعة التى تستعملها ، والذى يحميه سلطة غير منظورة - لكنها موجودة - هى سلطة الجماعة كلها ، والتى يحرص أفرادها على مراعاة عرفها اختيارا دون تحسك ، لأن العرف اللغوى - كما يقول جسر بن - لا يقوم على أساس أفضلية عمل على عمل ، أو حديث على حديث ، بل هو مجرد قبول لما تجرى عليه العادة ومن الأمور المعروفة فى مناهج البحث فى العلم أن من صفات الظواهر الاجتماعية صفة القهر *Contraint* التى تحمى بها هذا القبول الاختيارى من الأفراد لعرف الجماعة .

فعلى أى هذين الأمرين - التوقيف أو العرف - تعتمد سلطة الصواب والخطأ ؟

إن ملاحظة واقع الاستعمال فى اللغة يمكن أن تتخذ دليلا يقدم بين يدي الإجابة على هذا السؤال . فالفرد حين يستعمل لغة الجماعة التى هو عضو فيها أو لهجة البيئة التى نشأ بينها لا يتوقف استعماله على قواعد مقننة أو هيئة ذات اختصاص ، ولو كان الأمر كذلك لما تمكن عوام الناس - الذين لا يحدقون معايير النحو ولا يسمعون عن جهات الاختصاص وربما لا يعرف الكثيرون منهم القراءة والكتابة أصلا - من الحديث بالمره ، مع أن الأمر فى الواقع على خلاف ذلك تماما ، إذ نجدهم يستخدمون لغتهم بطريقة تلقائية سمة ، وهذا لا يعود إلى أن لغتهم لا تشمل على قواعد ونظام - كما هو شائع عنهم

خطأ - فالحق أن اللهجات العوام قواعد أشد صرامة من قواعد اللغات المكتوبة كما تدل على ذلك المشاهدة والملاحظة . فلوانتقل أحد أبناء القرى إلى قرية أخرى تتكلم لهجة مغايرة لهجته ، فإنه يلاحظ على الفور الفروق الدقيقة - في الأصوات والكلمات وتأليف الكلام - بين لهجته وهذه اللهجة الغريبة عنه ، فما معنى ذلك ؟ .

معناه بوضوح أن المستوى الصوتي الذي يراعيه هؤلاء مرجعه إلى الاستعمال لا إلى القواعد ولا إلى جهات الاختصاص .

ولنأخذ نموذجا آخر لنقاش حاد دار في مجمع اللغة العربية منذ سنوات قلائل - نشرته الصحف في حينه - حول اختيار لفظ بديل للكلمة « التليفزيون » ، وكان المرحوم د علي الجارم ، قد كتب مقالا منذ أكثر من ثلاثين عاما حول هذا اللفظ صدره بكلمتين إحداهما بالحروف الأجنبية هي كلمة « Television » ، والأخرى بحروف عربية هي « المرناة » ، واقترح أن تستخدم الكلمة الأخيرة بديلا عن الأولى . لأن الفعل (رَنَا) يدل على السمع والنظر في العربية ، « المرناة » ، على هذا هي آلة السمع والنظر .

وحين استخدم « التليفزيون » ، في بلادنا اقترح الاستاذ محمود تيمور اصطلاحا آخر من كلمتين هو « الإذاعة المرئية » ، وفعلا استخدمه بعض المذيعين في الإذاعة والتليفزيون أيضا ، ولما عرضت التسمية التي اقترحها الأديب الكبير علي أعضاء المجمع انقسموا إلى حزب « المرناة » وحزب « الإذاعة المرئية » واتخذت الصحف من ذلك الموضوع مادة للدعابة والفكاهة ، أما الجمهور فقد ترك أعضاء المجمع - وهم سلطة لغوية مختصة - في نقاشهم ، واستخدم - وما يزال - كلمة « التليفزيون » ، وأصبحت هي الشائعة بقوة الاستعمال .

فالاستعمال أو ما أطلق عليه العرب قديما « السماع » ، هو الفيصل في الصواب والخطأ .

يقول فندريس : كان هناك عقدا ضمينا أقالمته الطبيعة بين أفراد الجماعة الواحدة ليحافظوا على اللغة في الصورة التي توجهها القاعدة ، وكثيراً ما ترجع هذه القاعدة إلى الاستعمال ، ولكن الاستعمال غير التحكم ، بل هو ضده على خط مستقيم ، لأن الاستعمال خاضع لمصلحة الجماعة ، وهي هنا حاجتها إلى أن تكون مفهومة (١) .

فما أطلق عليه العرب قديما لفظة « السماع » ، وأسماء « فندريس » ، قواعد الاستعمال التي ترجع لمصلحة الجماعة وهي حاجتها إلى أن تكون مفهومة هو نفسه « العرف اللغوي » الذي يرجع إليه الحكم بقبول اللغة أو رفضها . ويبقى بعد ذلك احتراز مهم لا بد من الإشارة إليه في هذا المقام هو أننا لا ندعو بذلك إلى إلغاء القواعد والانصراف عن جهات الاختصاص اللغوي ، بل الذي ندعو إليه أن تكون القواعد والمعايير متفقة مع استعمال اللغة وتطورها ، وألا تتسم بالتحكم والجود ، فتفرض قواعد مرحلة على مرحلة أخرى ، وأن يؤخذ في اعتبار جهات الاختصاص طبيعة اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية تخضع للعرف الاجتماعي العام ، وللعرف اللغوي الخاص ، وحينئذ ينبغي أن يتوافق ما يقرحونه من لآء أو ألفاظ أو صيغ أو قواعد مع هذا الفهم .

٣ - الاقتصاد في اللغة على زمن خاص وبيئة خاصة

يراعى الناطق باللغة في نطقه عرف البيئة التي ينسب إليها ، فبيئة الفصحى

(١) « فندريس » اللغة ص ٣٠٤ .

مثلا تختلف عن بيئة اللهجات ، إذ تستعمل الأولى عادة في المواقف الجديدة والعامية خطابة أو تأليفا أو محادثة ، وهى بذلك ترتبط ببيئة خاصة هى البيئة المثقفة فعلا أو التى يفترض فيها الثقافة ، وهى أيضا المستوى الذى يراعى في مواقف الخطاب العام الذى يتخطى حدود الإقليم الضيق فعلا - كما فى أجهزة الإعلام الحديثة - أو يفترض أنه يتخطاه إذا ما تجمع فى مكان واحد أفراد من أقاليم متعددة يتفاهمون جميعاً بلغة واحدة مشتركة .

واللهجات عامة ذات بيئة خاصة ، إذ تستخدم عادة فى شئون الحياة العادية ، ولعل هذا يفسر تعدد لهجات اللغة الواحدة وتنوعها ، إذ تختلف لهجات القرى بعضها عن بعض ، كما نجد هذا الاختلاف نفسه بين لهجات البدو بعضها والبعض من جهة ، وبينها وبين الحضر من جهة أخرى ، بل إن المدينة الواحدة تتعدد فيها اللهجات بتعدد الأحياء أو الحرف ، فلهجة الصيادين مثلا تختلف عن لغة النجارين وعن لغة المثقفين ، بل إن لغة الشعر تختلف عن لغة النثر بين المثقفين أنفسهم ، ويرجع ذلك كله إلى اختلاف البيئة واختلاف شئون الحياة التى تهتم كل واحدة منها .

فالبيئة الخاصة تحدد المستوى الصوتى لمن يستعمل اللغة ، ولأمر ما قال الكسائى قديما : حلفت ألا أكرم عاميا إلا بما يوافقه ويشبه كلامه ، وقفت على نجار فقلت له : « بكم هذان البابان » فقال (بسلحتان يامصفعان)^(١) .

« يقول فيرث Firth : إن كلام الجماعة المتراملة لغويا يعتبر شيئا مختلفا عن كلام أولئك الذين لا ينتسبون لنفس الجماعة ، وإن هذا الكلام كما يعد رابطة بينهم هو فى الوقت نفسه حد مميز يخرج غيرهم منهم »^(٢) .

(١) أخبار الطراف ص ٧٧ .

Papers in Linguistics, P. 186 (٢)

فالجماعة المتزاملة لغويا تستعمل فى لغتهم - أصواتا وتنغيا ونحوا ومصطلحات وصيغا وألفاظا متماثلة ، إذ يربط بينهم - كما يقول فيرث - ما يتقاسمونه من تجارب مشتركة ، وهم يستمسكون بهذا التماثل ويحرصون عليه ، لأنه شرط الفهم والإفهام فى بيئتهم الخاصة ، وإذا أخل أحدهم بهذا النظام التماثل ، حكم على نطقه بالغرابة والشذوذ ، إلا أن ترضى البيئة عن هذا الشذوذ نفسه ، وحينئذ تنفى عنه هذه الصفة ، ليسمع له بالدخول إلى حيز الاستعمال العام المقبول .

أما اقتصار المستوى الصوابى على زمن خاص فهو ما يتفق فى استعمال اللغة مع الواقع المشاهد ، فالمرء ينطق اللغة على حسب نظامها الذى وجدها به فى عصره ، إذ تتغير اللغة من عصر إلى عصر ، وقد يكون هذا التغير بطيئا لا يظهر إلا بعد مرور جيل أو أجيال ، لكنه تغير يحدث فعلا ولا ينفى ببطء حدوثه ، أو طول الزمن به .

والأفراد يكتسبون اللغة من بيئتهم وفى عصرهم الذى عاشوا فيه ، وبناء على ذلك يراعون اللغة كما تنطق فى عصرهم لا كما كانت تنطق فى عصور سبقت ، ولا كما ينبغى أن تنطق وفق نموذج مثالى لعصر ذهبي غييبته الأيام .

وقد أشار لهذا المعنى ابن رشيق بقوله : قد تختلف المقامات والازمنة والبلاذ ، فيحسن فى وقت ما لا يحسن فى آخر ، ويستحسن فى بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره . ونجد الشعراء الخذاق تقابل كل زمان بما استجد فيه وكثر استعماله عند أهله ، بعد ألا تخرج من حسن الاستواء وخذ الاعتدال وجودة الصنعة ، (١) .

وربما قصد ابن رشيقي بما قرره من الاختلاف والاستحسان استعمال اللغة في مستواها الأدبي لا اللغوي، لكن الأمر في الحقيقة لا يختلف، فكما يتغير العرف الفني للغة من عصر لعصر، يتغير العرف اللغوي أيضا بطريقة مماثلة، والفرق لم يكن في هذا التغير، بل كان في نظرة اللادرسين العرب له، فقد اعترف به دارسو الأدب — ومنهم ابن رشيقي — فتطورت دراستهم مع العصور، ورفضه دارسو اللغة — مع أنه أمر واقع — فتوقفت قائلتهم عند عصور خاصة رفضوا تجاوزها. أما اللغويون المحدثون فإنهم يأخذون التغير في اللغة باعتبار العصور مأخذ الضرورة الواقعة. وينظرون — بناء على ذلك — إلى نشاط مستعمل اللغة بعين عصره، مقتصره تلك النظرة في قياس هذا الاستعمال على العصر الذي حدث فيه، دون عصور سابقة أو لاحقة.

يقول سترتيفانت Sturtevant: تضع مدارس النحو الوصفية نصب عينها تقديم المساعدة في تعلم اللغة في فترة معينة من فترات تاريخها مفترضة أن اللغة نظام معين من الصيغ يستخدم بطريقة خاصة، وأن المستعملين للغة ينظرون إليها على أنها ثابتة Static مع أنها في الحقيقة تتغير باستمرار^(١).

فهذه النحوى تقديم المساعدة في تعلم اللغة في فترة خاصة مع افتراض ثباتها في تلك الفترة — كما يحس بذلك المستعملون لها ظاهريا — مع أنها في الحقيقة تتغير باستمرار، وهذا التغير يخضع له متكلم اللغة في نشاطه دون تعمد، ويجب على الباحث مراعاته أيضا عند وصفه لهذا النشاط.

٤ — اعتبار التطور في اللغة

اللغة — أية لغة — في حركة دائمة ، ويؤدي ذلك إلى التغير في مختلف مظاهرها أصواتا وصيغا ومفردات وتراكيب .

والتطور في اللغة يعود إلى طبيعتها الاجتماعية ، إذ هو سمة من سمات الظواهر الاجتماعية المختلفة، فهي في اندفاع مستمر لا يد لأحد على إيقافه ، ووضع القيود والمعايير في طريقه ، كما أنه لا قدرة لأحد على مخالفته أو الخروج عن مقتضى التوافق معه .

هذا التطور المستمر في اللغة لا يوصف بأنه اتجاه إلى الأحسن أو الأقبح أو أنه تطور إلى الارتفاع أو الانخفاض ، أو الصحة أو الفساد ، فليست اللغة العربية الفصحى مثلا في القرن الأول الهجري أصح منها في القرن الثاني أو الخامس ، وبالمثل لا ينسب إلى لهجات العصر الجاهلي من التفضيل والتميز ما تحرم منه اللهجات التي تنطق الآن بين قبائل الجزيرة العربية التي تقطن الأماكن التي وجدت فيها اللهجات العربية القديمة ولا اللهجات التي تنتشر الآن في العالم العربي على تنوعها واختلافها ، كما أن العكس أيضا غير صحيح ، بأن ننسب إلى اللغة المشتركة أو اللهجة التي وجدت في فترة أكثر حضارة صفات الرقي والتفضيل ، لأنها تعبر عن تجارب أرقى لم تتوفر لما سبقها في الزمن .

فاللغة أو اللهجة لا تقاس صلاحيتها بحسب التقدم أو التأخر في الزمن ، والرقي أو التأخر في الحضارة ، بل بحسب قدرتها على أداء دورها الاجتماعي بين من ينطقونها ، إذ تستجيب للتعبير عن تجاربهم ومظاهر حياتهم وتحمق الاتصال والتفاهم بينهم .

يقول أولمان Ullman : اللغة ليست هامة أو ساكنة بحال من الأحوال وبالرغم من أن تقدمها قد يبدو بطيئا في بعض الأحيان ، فإن الأصوات والتراكيب والعناصر النحوية وصيغ الكلمات ومعانيها معرضة كلها للتغيير والتطور ، ولكن سرعة الحركة والتغير هي التي تختلف من فترة زمنية إلى أخرى ، ومن قطاع إلى آخر من قطاعات اللغة (١) .

ويوضح أولمان - متفقاً في ذلك مع رأى غيره من اللغويين المحدثين - كيفية التغيير في اللغة بأنه يقع على مرحلتين : الأولى هي مرحلة التغيير نفسه وما يطلق عليه « الابتداء والتجديد » Innovation ويحدث هذا في الكلام الفعلي ، وقد يقوم به فرد من الأفراد بإدخال عناصر جديدة في استعمال اللغة ، والثانية هي مرحلة « انتشار التغيير » Dissemination بأن تتداوله الجماعة فيما بينها ، وإذا حدث ذلك أصبح التغيير عنصراً من عناصر نظام اللغة ، ما دام قد سمح له بالاستعمال العام بين الناطقين بها .

فالتغيير يبدأ أولاً فردياً بما يدخله فرد أو أفراد على نظام اللغة من استعمالات جديدة ، مما ينظر إليه أولاً على أنه مخالفة لما عليه الجماعة ، فإذا قدر لهذه المخالفات أن تلقى قبولا من غيرهم ، فإنها تأخذ الطابع الاجتماعي العام ، وتصبح القاعدة التي يتبعها كل الناطقين باللغة .

ينقل « يسبرسن » عن بعض اللغويين العبارة المشهورة الآتية : « إن تاريخ اللغة ليس سوى تاريخ الأخطاء اللغوية فيها » (٢) - والمقصود من هذه العبارة هو وصف الكيفية التي يتم بها حدوث التطور في اللغة ، إذ يبدأ أولاً فردياً ثم يصبح اجتماعياً ، لكن التعرف عليه بوضوح لا يظهر إلا بمرور وقت قد يطول أو يقصر ، لكنه موجود على كل حال .

(١) دور الكلمة في اللغة ص ١٦٥ .

(٢) اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٥٦ .

إن اعتبار التطور في اللغة بتغيرها من جيل إلى جيل آخر على قرات تنخلها - كما يقول أولمان - تغيرات وانحرافات دائمة يستتبعه بالضرورة تغير ما يراعيه المتكلم على حسب العرف اللغوي الجديد الذي يفرض نفسه عليه كي يتوافق معه ، ويترتب على ذلك أن مستعمل اللغة لا يطالب بتغير مراعاة المستوى الصوابي في اللغة الذي اكتسبه من الجيل الذي هو أحد أفرادها ، ومن عرف العصر الذي عاش فيه .

أما الباحث في اللغة فينبغي - لكي تكون دراسته سليمة المنهج - أن يضع في ذهنه هذا الاعتبار جيدا ، وإذن فليس من حقه أن يفترض في اللغة التوقف عند فترة معينة أو جيل خاص أو عدة أجيال ، فإن هذا - في حقيقة الأمر - تجميد للدراسة لا للغة ، فاللغة من طبيعتها التطور المستمر الذي لا يد لأحد على إيقافه وتحديد - على ما سبق شرحه - فافتراض هذا التوقف يؤدي في الدراسة إلى نتائج خطيرة . إذ ينصرف الجهد حينئذ إلى النظر في الدراسة بدلا من ملاحظة اللغة ، فتصطبغ حينئذ بالتفريع والاضطراب والجهد الذهني العميق ، مما لا حاجة باللغة إليه ، كما أن افتراض التوقف في اللغة من شأنه أن يرغم الباحث على فرض ما لاحظته عن - في فترة - من فترات على فترة أخرى أدى إليها تطورها ، وهذا عكس لمهمة الدارس من الوصف إلى التحكم ، ومن الملاحظة إلى المصادر .

٥ - المستوى اللغوي نشاطا للتكلم يصفه الباحث

المستوى الصوابي ينسب إلى مستعمل اللغة ، فهو معيار اجتماعي تراعى مطابقته من الناطق لا من الدارس ، هو مما توصف به اللغة لا قواعد اللغة ، شأنه في ذلك شأن الأمور الاجتماعية كلها ، من التقاليد والعادات والدين

وللمساكن والحفلات ، حيث يراعى فيها كلها العرف الاجتماعى العام وما يقرره من سلوك خاص بكل واحد منها .

والمستوى الصوابى بالنسبة لتسكلم اللغة لا ينطبق تماما على ما يسميه اللغويين المحدثون « الصوغ القياسى Analogie Creation » ، لأن الصوغ القياسى يراعى فيه العرف اللغوى الخاص ، بمعنى : مراعاة القواعد العامة المشهورة فى صياغة الكلام والعبارات ، على حسب نظام اللغة المستعملة فى الأصوات والصيغ والمفردات وتأليف الكلام ، أما المستوى الصوابى فلا بد لتحقيقه من مراعاة أسس أخرى مع ذلك ، أهمها — كما سبق — العرف الاجتماعى والبيئة والعصر واعتبار التطور فى اللغة ، وبعبارة قصيرة : أن الصوغ القياسى يتحقق بمراعاة العرف اللغوى الخاص ، ولكن المستوى الصوابى يشترط مع ذلك العرف الاجتماعى العام وما يستتبع ذلك من شروط البيئة والعصر والتطور .

أما للباحث فى اللغة فينبغى أن يقتصر عمله على الملاحظة والوصف ، فسكانه الصحيح وراء النشاط اللغوى لاستقرائه وملاحظته وتصنيفه ، وليس من حقه أن يضع نفسه أمام هذا النشاط لتوجيهه ، وليس من حقه أيضا أن يتخذ من ملاحظاته وقواعده التى حصل عليها من وصف النشاط اللغوى فى فترة خاصة قوة يفرضها على فترة أخرى بالتحكم والمصادرة .

ومن أدق ما قرأته وأقواء عن موقف المتكلم والباحث من اللغة هذه العبارات للدكتور تمام حسان : اللغة بالنسبة للمتكلم معايير تراعى ، وبالنسبة للباحث ظواهر تلاحظ ، وهى بالنسبة للمتكلم ميدان حركة ، وبالنسبة للباحث ظواهر تلاحظ ، وهى بالنسبة للمتكلم ميدان حركة ، وبالنسبة للباحث موضوع دراسة ، وهى بالنسبة للمتكلم وسيلة حياة فى المجتمع ، وبالنسبة للباحث وسيلة

كشفت عن المجتمع ، المتكلم يشغل نفسه بواسطتها ، والباحث يشغل نفسه بها ، ويحسن المتكلم إذا أحسن القياس على معاييرها ، ويحسن الباحث إذا أحسن وصف نماذجها (١) .

* * *

وفي ختام هذا الفصل ينبغي معرفة أن استعمال اللغة — كما يقرر ذلك المحدثون والاقدمون أيضا — يتدرج في المستويات الآتية :

(أ) اللغة المفهمة

(ب) اللغة الصحيحة

(ج) اللغة البليغة

والمقصود باللغة المفهمة — كما يقول جسر سن — أن تكون أداة للإفهام في أدنى درجاته ، حيث لا يراعى في هذا المستوى غالباً عرف اللغة المستعملة وما يقرره من نظام في الأصوات والصيغ والتراكيب . وقد أورد أبو عثمان الجاحظ في البيان والتبيين ، نماذج ينطبق عليها هذا المستوى في استعمال اللغة العربية ، حيث كان الأجانب يستعملونها بقصد الإفهام مع التخليط في نطقهم أصواتا وصيغا ومفردات .

ومستوى الإفهام يوجد ضرورة في استعمال اللغة من الأجانب عن بيئتها ، ويمثل ذلك ما يلحظه المرء من استعمال الأجانب من الأوربيين لهجة القاهرة ، فقد يسأل أحدهم عن جامعة القاهرة مثلا فيقول (الجامعة بتاع القاهرة تسكون فين) فهذا التعبير يفهمه كل فرد من أبناء القاهرة ، ويحقق لصاحبه مقصده في الوصول إلى الجامعة ، ولكنه مع ذلك يثير في نفس السامع من أبناء القاهرة إحساسا بغرابة هذا التعبير عن طريقته في النطق ، فهو تعبير مفهم ، ولكنه غير صحيح بالنسبة لعرف لهجة القاهرة .

(١) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٣ - ٤ .

أما اللغة الصحيحة فهي — كما يقول جسر بن — في درجة أعلى من كونها أداة للإفهام ، فلا تتحقق لها الصحة إلا بمراعاة أسس المستوى الصوابي التي خصص هذا الفصل كله لشرحها .

أما اللغة البليغة أو الفنية فإنها تتجاوز الصحة إلى « الجمال في التعبير » يقول جراي Gray يمكن تعريف الأدب بأنه استعمال الكلمات استعمالاً صحيحاً تصور به الظلال الدقيقة للعاني التي يرغب الكاتب في إثارتها ، وكلما كان الكاتب أكثر تمسكاً من لغته التي يستعملها ، كان أقدر على اختيار الأسلوب الأحسن (١) .

والبحث في الظلال الدقيقة والأسلوب الأحسن هو بحث في الأدب لا في اللغة ، وهو من خصائص متذوق النصوص لا من اختصاص من يحلل النصوص بطريقة موضوعية دقيقة ، وعلى هذا فإن مستوى « اللغة البليغة » يهبط منه صحة اللغة لاجمال العبارة .

* * *

ويعد هذا الفهم لعناصر النظرة الحديثة للمستوى اللغوي ، فإننا ندرس في ضوئها موضوعين من تراثنا هما (الفصحى واللهجات) و (لغة النثر ولغة الشعر) فهذه مستويات مختلفة تتفاوت فيها اللغة ، وهي مجال خصص من تراثنا ندرسها ابتداءً كما فهمها علماء اللغة الأقدمون ، ونعرضها بعد على ما فهمناه في هذا الفصل الأول من نظرة المحدثين للمستوى اللغوي ، لنفيد من ذلك ما نراه متوافقاً مع تراثنا وقيمنا دون غلو أو شطط ، ودون تعالم أو تحكم .